٨- سيدنا يونس عليه السلام

صاحب الحوت

على الرغم من أن نبى اللّه يونس عليه السلام ٠٠ قد أرسل لأهل قريته التى زاد عددها كما جاء بالقرآن الكريم على مائة ألف ، وعلى الرغم من وصفه بقله الصبر وسرعة الغضب ٠٠ فإن اللّه تعالى ولحكمة عظيمة لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى ٠٠ قد ذكره فى أكثر من آية فى سور عديدة من سور القرآن الكريم ٠٠ وكذلك خصص له سورة قرآنية كاملة تحمل اسمه وهى سورة « يونس »٠

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ** ﴾[يونس : ٩٨]٠

وفى سورة الصافات قال تعالى : ﴿ **وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ۝ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ۝ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ۝ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِن يَقْطِينٍ ۝ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ** ﴾[الصافات : ١٣٩ - ١٤٨]٠

وفى سورة الأنبياء فى قوله تعالى : ﴿ **وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لا إِلَهَ إِلا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ۝ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ** ﴾[الأنبياء : ٨٧ - ٨٨]٠

وفى سورة القلم أيضًا قال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ۞ لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِن رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۞ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [القلم : ٤٨ - ٥٠].

وقد وصف اللَّه تعالى هذا النبى الكريم بصفتين .. أولاهما أنه ذو النون ، أى صاحب الحوت .. وثانيتهما أنه كان من المسبحين الذين اتخذوا من كلمات رب العالمين سبيلاً للنجاة من ظلمات البحر وظلمات بطن الحوت ، ورغم ذلك فقد ابتلاه اللَّه فى نفسه .. حتى صار من أنبيائه المبتلين فى الدنيا ..

ولقد صبر على هذا البلاء حتى فرج اللَّه عنه بلاءه .. وكان سبيله إلى ذلك أنه ذكر اللَّه كثيرا. ولما صبر على هذا البلاء أعيد للحياة مرة أخرى ، ومَنَّ اللَّه عليه من فضله .. وكان من عباد اللَّه الصالحين.

ولنا مع قصة يونس عليه السلام وابتلائه ببطن الحوت.. الذي تحول فى لحظات إلى سجن مظلم ومخيف .. وقفات كثيرة .. قد تطول وقد تقصر .. وفق مجريات القصة فى مختلف المصادر.

ونحن نسوقها هنا على سبيل العظة والعبرة ، لهؤلاء الملتاعين الذين لا يصبرون أبدًا أمام اختبارات السماء. ونريد أن نقول لهم المرة تلو الأخرى : عليكم بالصبر والابتعاد عن الجزع .. ولكم فى أنبياء اللَّه أسوة حسنة من الذين ابتلاهم رب العالمين فصبروا وشكروا ، فجزاهم اللَّه خير الجزاء.

وحين نتحدث عن قصة يونس عليه السلام مع الحوت ، كان لابد لنا أن نتوقف أمام نسبه وحياته ، وذلك قبل الغوص معًا فى قلب قصة ابتلائه داخل بطن الحوت.

والنبى يونس المقصود من الحديث .. هو يونس بن متى عليه السلام ، وقد نقل الألوسى عن « البحر » أنه كان فى زمن ملوك الطوائف من الفرس ، وأنه أوتى النبوة وهو ابن ثمان وعشرين سنة..

و« متى » هو اسم أبيه كما رجحه ابن حجر ، وقيل : اسم أمه وهو المذكور فى تفسير عبد الرازق ، وبعض أهل الكتاب يسمونه « يونان بن متى » ، وبعضهم يسميه غير ذلك.

وتأكيدًا على ما قيل بشأن نسبه إلى أمه ذكر الثعلبى أن أحدًا من الأنبياء لم ينسب أبدًا إلى أمه إلا عيسى ابن مريم ويونس بن متى - عليهما السلام - ، وهو النبى الذي قال فيه رسول اللَّه ﷺ « لا ينبغى لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى ».

وقال العلماء بأخبار القدماء : كان يونس رجلاً صالحًا يتعبد فى الجبل ، وكان فى قرية من قرى الموصل يقال لها « نينوى » ، وكان قومه يعبدون الأصنام فبعث اللَّه إليهم يونس بن متى عليه السلام بالنهى عن الكفر والأمر بالتوحيد .. وكان يونس عليه السلام رجلاً صالحًا لا يصبر على الناس فلحق بالجبل يعبد اللَّه تعالى فيه ، وكان حسن القراءة يستمع إلى قراءاته الوحوش كما كان لداود فى زمانه ، كما كانت تعتريه حدة ، ولذلك نهى رسول اللَّه ﷺ أن يكون مثله لخفة وعجلة ظهرت فيه ، وذلك ظاهر قول اللَّه تعالى : ﴿ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾ .. لأنه كان قليل الصبر على قومه والمداراة لهم.

ومن هنا قال رسول اللَّه ﷺ « كان يونس بن متى فيه عجلة وخفة فلما حمل أعباء النبوة تفسخ تحتها تفسخ الربع تحت الحمل الثقيل .. ولذلك السبب ذهب مغاضبًا ».

ولا شك أن غضبه السريع وعدم صبره على قومه .. كان البداية الحقيقية لتعرضه لذلك الابتلاء الذي أفضى به إلى بطن الحوت .. وقد ظن أن اللَّه لن يقدر عليه.. لكنه سرعان ما عرف ما وقع فيه .. وبالتالى أخذ يسبح رب العالمين أن يعفو عنه ويسامحه .. وقد كان .. إذ أمر اللَّه الحوت أن يخرجه من بطنه ليعود

إلى الحياة من جديد ، وهذا ما سنعرفه بالتفاصيل بعد لحظات حين نعيش مع هذا النبى الكريم قصة ابتلائه فى جوف البحر. بعدما دخل إلى بطن الحوت سجينًا حزينًا !.

الابتلاء فى النفس

يقول الإمام الأكبر الراحل الدكتور عبد الحليم محمود : إن يونس بن متى هو صاحب الدعوة المشهورة ، التى يقول عنها رسول اللّه ﷺ : « لم يدع مسلم ربه فى شىء قط بها إلا استجاب له ».

وهذه الدعوة هى : ﴿ **لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين** ﴾ وهى دعوة تبدأ بالتوحيد الخالص الذي يتمثل فى قوله تعالى : ﴿ **لا إله إلا أنت** ﴾ ، وتثنى بالتنزيه ، تنزيه اللّه عن كل ما يتنافى مع الكمال ، وذلك يتمثل فى قوله ﴿**سبحانك**﴾ ثم تنتهى بالاعتراف الخاشع الخاضع المتمثل فى قوله : ﴿ **إنى كنت من الظالمين**﴾.

وهذه الكلمات القليلة التى يتمثل فيها الإيجاز المعجز فى اللفظ والتى يتمثل فيها السمو السامى فى المعنى لا تطلب شيئًا فى صراحة ولا تنادى بشىء بأسلوب مباشر ، ولكنها مفعمة بالطلب ، ومفعمة بالاستغاثة ، ولقد دعا بها سيدنا يونس وهو فى بطن الحوت(١).

ويؤكد العديد من المؤرخين أن حال هذا النبى الكريم مع الابتلاء.. قد بدأ منذ أن خرج من قريته مغاضبًا ، واختلف هؤلاء المؤرخون فى سبب هذا الغضب ، فقال البعض ذهب مغاضبًا لقومه ، وهى رواية الضحاك والصوفي عن ابن عباس قال : كان يونس بن متى وقومه يسكنون فلسطين فغزاهم ملك فسبى منهم تسعة

---

(١) أنظر كتاب: مع الأنبياء والرسل ، مصدر سابق.

أسباط ونصفًا وبقى سبطان ونصف وكانوا اثنى عشر سبطا فيهم النبوة والملك فأوحى اللَّه إلى أشعيا النبى أن سر إلى حزقيا الملك وقل له أن يوجه نبيا قويا أمينا فإنى ألقى الخوف فى قلوب أولئك الأسباط حتى يرسلوا معه بنى إسرائيل. فقال له الملك : فمن ترى؟ ! وكان فى مملكته خمسة من الأنبياء ، فقال : يونس فإنه قوى أمين ، فدعا الملك يونس وأمره أن يخرج ، فقال له يونس : هل أمرك اللَّه بإخراجى؟ ! قال : لا ، قال : هل سمانى لك ؟ قال : لا ، فقال : ههنا غيرى أنبياء أقوياء أمناء.. فألحوا عليه فخرج مغاضبًا للنبى والملك ولقومه ، فأتى بحر الروم وكان من أمره ما كان مع الحوت.

أما الحسن البصرى فقال : إنما غاضب ربه من أجل أنه أمره بالمسير إلى قومه لينذرهم بأسه ويدعوهم إليه ، فسأل يونس ربه أن ، ينظره ليتأهب للشخوص إليهم ، فقال له : الأمر أسرع من ذلك ، ولم ينظره حتى سأل أن ينظر إلى أن يأخذ نعله يلبسها فقيل له نحو القول الأول ، وكان رجلاً فى خلقه ضيق ، فقال أعجلنى ربى أن آخذ نعلى فذهب مغاضبًا .. كما روى شهر بن حوشب عن ابن عباس قال: أتى جبريل يونس عليه السلام فقال له : انطلق إلى أهل نينوى فأنذرهم أن العذاب قد حضرهم إن لم يتوبوا ، فقال له : ألتمس دابة ، قال الأمر أعجل من ذلك فغضب وانطلق إلى البحر فركب سفينة فكان من أمرها ما كان.

وأما الرأى الأصوب فى سبب غضب هذا النبى الكريم .. وفق إجماع المفسرين فى العصر الحديث .. هو ما رواه كل من الشيخين الكريمين الدكتور عبدالحليم محمود والشيخ محمد متولى الشعراوى.

مما قاله الدكتور عبد الحليم فى هذا الشأن أن اللَّه قد أرسل سيدنا يونس عليه السلام إلى أهل « نينوى » من أرض الموصل بالعراق ، وكان سيدنا يونس ككل الأنبياء متحمسًا لدعوته ، قائمًا بها فى الصباح والمساء. وكلما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ومتخذًا لها كل الوسائل التى فى إمكانه لتنتشر وتعم ، ولكن قومه قابلوا

تحمسه بفتور، وقابلوا دعوته إلى الإيمان بالكفر الأصم، وقابلوا عنايته بعناد لا يلين، وإذا كان سيدنا نوح فى مثل هذا الموقف الذي لا بارقه فيه من أمل فى إصلاحه دعا على قومه قائلاً: ﴿ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ سورة نوح.. فكان سيدنا يونس رأى أن لا فائدة فى المكث بينهم، فأنذرهم بحلول العذب بهم بعد ثلاثة أيام، وخرج من بينهم معلنًا أنه يخرج من أجل النجاة من عذاب اللَّه الذي أوشك أن يحل بهم لكفرهم وطغيانهم، وغادر المدينة متعمدًا أن يكون ذلك على مرأى ومشهد من أهلها.. وما إن فارقهم نبى اللَّه حتى بدأ الخوف بل والرعب يدب فى قلوبهم، ويتغلغل فى نفوسهم. خاصة وأنهم تأكدوا أن العذاب واقع بهم لا محالة، وأخذ خيالهم يصور لهم العذاب وألوانه وفجائعه، فتجمعوا وتشاوروا فيما بينهم وانتهوا إلى اتفاق عام يصوره الإمام ابن كثير بقوله: قال ابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغير واحد من السلف والخلف: إنه لما خرج من بين ظهرانيهم، وتحققوا نزول العذاب بهم قذف اللَّه فى قلوبهم التوبة والإنابة، وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم، فلبسوا المسوح وفرقوا بين كل بهيمة وولدها.. ثم لجأوا إلى اللَّه - عز وجل - ، وصرخوا وتقربوا إليه، وبكى الرجال والنساء والبنون والبنات والأمهات، وخارت الأنعام والدواب والماشية ورغت الإبل وفصلانها وخارت البقر وأولادها، وكانت ساعة عظيمة هائلة.

ويضيف الدكتور عبد الحليم محمود: لقد فارق يونس عليه السلام قومه بعد أن أنذرهم بعذاب مدمر فتضرعوا إلى اللَّه - سبحانه وتعالى - بالتوبة والإنابة والاستغفار، مقدمين بين يدى ذلك كله، الإيمان الصادق فكانت ثمرة ذلك نجاتهم من عذاب اللَّه..

ولقد صور لنا القرآن الكريم هذا الموقف فى قوله تعالى: ﴿ إِلا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ [يونس: ٩٨].

أما يونس عليه السلام فإنه لما ضاق بقومه ذرعًا فارقهم مغاضبًا منذرًا إياهم بالعذاب ، ولم تكن هذه المفارقة عن استئذان من اللَّه - سبحانه - أو عن أمر منه ، وإنما ظن هو أن هذا فى شريعة اللَّه أوسع من أن يحتاج إلى إذن ، وأنه غير مضيق عليه من قبل اللَّه فى المكث أو المفارقة ، أى أنه مجال مباح. وعزب عن ذهنه فى ساعة مغاضبته لقومه أن المفارقة بدون استئذان إذا جازت للأفراد العاديين ، فإنها لا تجوز بالنسبة لمن يصطفيهم اللَّه للعبودية الخالصة ، ومن يجتبيهم مرسلين من قبله.

وكان من تقدير اللَّه سبحانه أن وصل يونس عليه السلام إلى شاطئ البحر وركب مركبًا مشحونًا ثقيل الحمولة وهبت ريح جعلت المركب على حافة الغرق بمن فيها ، فكان لابد من تخفيف حمولتها حتى يستقيم أمرها.. واستهم الركاب على من يلقون به فى البحر تخفيفًا للحمولة ، فوقعت القرعة على يونس عليه السلام فألقوه فى البحر.

ولما ألقوه فى البحر ، بدت له الأمور فى غاية الصعوبة وأنه غارق لا محالة.. فما كان عليه إلا الاستسلام لأمر ربه.

إلا أن اللَّه - سبحانه وتعالى .. ولحكمة عظيمة قد أصدر أوامر السماء إلى حوت كبير فابتلعه ، وفجأة رأى سيدنا يونس نفسه فى بطن الحوت بين ظلمات ثلاث ! ، فاشتد كربه وبلاؤه وتأكدت لديه النهاية المحتومة بالهلاك. إلا أنه أسرع فى الوقت المناسب يطلب العون من رب العالمين. مستغيثًا باللَّه.

وقد ذكر ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ **فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لا إِلَهَ إِلا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [الأنبياء : ٨٧].

فانظروا ماذا كان رد الفعل العظيم عند رب العالمين .. وهو المطلع على أعمال العباد .. سواء فى الأرض أو فى السماء أو فى أعماق البحار فقد روى يزيد

الرقاشى قال : سمعت أنس بن مالك يقول : إن يونس النبى عليه السلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو فى بطن الحوت قال : اللَّهم لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ٠٠ فأقبلت هذه الدعوة تحت العرش ، فقالت الملائكة : يا رب صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة٠٠ فقال : أما تعرفون ذاك ؟ !٠٠ قالوا : لا يارب ومن هو ؟٠ قال : عبدى يونس ، قالوا : عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مجابة ؟ ! قال : بلى : فأمر الحوت فطرحه فى العراء٠

لقد أمر اللَّه الحوت أن يلقى عبده يونس عليه السلام بالعراء ، وهو ضعيف البدن كما أنبت عليه شجرة من يقطين وهو نبات القرع ليأكل منه ٠٠ وهو غذاء مفيد ، دون أن يسعى لنيل غذائه وهو بهذه الدرجة من الضعف٠ وعناية اللَّه فوق كل عناية ، وهى العناية التى تحدث عنها القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ **فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِن الْمُسَبِّحِينَ۞ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ** ﴾[الصافات : ١٤٣-١٤٤] ، وفى قوله تعالى فى سورة الأنبياء : ﴿ **فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لا إِلَهَ إِلا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِن الظَّالِمِينَ۞ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِن الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ**﴾[الأنبياء : ٨٧ - ٨٨]٠

أما بخصوص ما قاله إمام الدعاة الشيخ محمد متولى الشعراوى ٠٠ فهو لم يبعد كثيرًا عما سقناه من تفاصيل سابقة بشأن قصة يونس عليه السلام مع أهل قريته ومع الحوت ٠٠ وإن كان قد ساق بعض المعلومات المهمة بشأن هذا الابتلاء كقوله : إن قصة ابتلاء يونس بالحوت قد ذكرها عداس خادم بستان الطائف عندما ذهب رسول اللَّه ﷺ إلى هناك يطلب النُصرة ، فحرض أهل الطائف عليه غلمانهم وسفهاءهم ، فقذفوه بالحجارة حتى دميت قدماه الشريفتان ، فدخل إلى بستان ، فرآه خادم البستان واسمه عداس ، وأتى له بقطف عنب ليأكله ثم تكلم معه فأخبره عداس أنه من « نينوى » قال له رسول اللَّه ﷺ : « قرية العبد الصالح » قال عداس : وما أدراك بالعبد الصالح ؟ فقال : إنه نبى وأنا نبى٠

ولقد اختلف العلماء كذلك فى مدة مكث يونس عليه السلام فى بطن الحوت ..
فقال أحدهم : ثلاثة أيام ، وقال آخر : سبعة أيام ، وقال الضحاك : عشرون يومًا ..
وقال السدى والكلبى : أربعون يومًا. فلما أخرجه الله من بطن الحوت أنبت له شجرة من يقطين ، وهو القرع ، فجعل يستظل بها ، ووكل الله به وعلة تختلف إليه فيشرب منها لبنا.

وهناك من الروايات التاريخية التى زادت فى قصة يونس عليه السلام .. خاصة بعد نجاته من بطن الحوت ، ومن هذه الروايات ما يؤكد أصحابها أن يونس عليه السلام قد رجع إلى قومه وعاش بينهم مع ولده أربعين ليلة ثم خرج سائحًا وخرج قومه معه.. كما صاحبه ملك مدينته فى سياحته الدينية ، وظلا يعبدان الله - تعالى - حتى ماتا - عليهما السلام -

ويؤكد صاحب كتاب عرائس المجالس أن يونس عليه السلام ظهر فى زمان ملوك الطوائف.

وكذلك اختلف العلماء فى عدد الزيادة التى ذكرها القرآن الكريم بشأن أهل قريته .. إذ كانوا فعلاً مائة ألف .. أما الاختلاف فقد شمل هذه الزيادة .. فمنهم من قال : إن هذه الزيادة تشمل عشرة آلاف ، ومنهم من قال : إن رسول الله ﷺ حين سأل عن هذه الزيادة قال : يزيدون عشرين ألفا ». وعن ابن عباس : كانوا مائة ألف وثلاثين ألفًا ، وقال سعيد بن جبير : كانوا مائة ألف وسبعين ألفًا. كما اختلفوا كذلك فى توقيت إرسال يونس عليه السلام إلى قومه.. وهل كان إرساله إليهم قبل أو بعد الحوت ؟ !.

وخلاصة القول أن العبرة الأساسية التى من الواجب الوقوف عندها بعد قراءة متأنية لقصة يونس عليه السلام مع قومه ومع الحوت .. هى أن الله تعالى نجى عبده يونس عليه السلام .. لأنه كان من المسبحين وكذلك نجى قوم قريته الذين بادروا بالإيمان بالله وبرسالة يونس عليه السلام .. وتلك هى الغاية الكبرى من وراء حادث الابتلاء.